رواية الليلة الأولى من عزاء الإمام الحسين(ع) بعد استشهاد قائد الأُمّة

لم تخرج لتُطلّ علينا.. فما جدوى الانتظار؟

٦ مهدي مولائي
khamenei.ir

رواية الليلة الأولى من مراسم عزاء سيد الشهداء الإمام أبي عبدالله الحسين(عليه السلام)، بحضور آلاف المواطنين من مختلف الشرائح، في جوار حسينية الإمام الخميني(رحمه الله)، ومحل العروج الملكوتي لقائد الأمّة الشهيد سماحة آية الله العظمى السيد علي الخامنئي(قدّس الله نفسه الزكية).

آخر مرّة قطعت فيها هذا الشارع بخطواتي المفعمة بالشوق كانت في ١٧ فبراير/ شباط ٢٠٢٦. كان ذلك من آخر اللقاءات العامة مع سماحة قائد الثورة الاسلامية، وكان أبناء محافظة آذربايجان ضيوف القائد. ومنذ الحديث عن فلسطين، لم تعد أقدامنا تستقر على الأرض، بل كنّا نحلّق باتجاه حسينية الإمام الخميني(رض). وفي الأزقة المؤدية إلى الحسينية، كانت الابتسامة واللهفة تتلألآن على وجوه الضيوف الذين يتسابقون إلى الدخول. وكان الناس يكتبون بأقلام زرقاء على أكفّهم عبارة: «روحي فداء للقائد»، ثم يلتقطون الصور التذكارية ببطاقات الدعوة. كان لهذا المكان، يوماً ما، ضجيجه الجميل وروحه النابضة.

أمّا اليوم، فإن خطوات حاملي بطاقات الدعوة تمضي ببطء وثقل، كأن كل واحد منهم يحمل جبلاً على كتفيه. جماعات من المعزين بلباس السواد تتجه نحو الحسينية، وكل منهم يحمل في صدره غصّةً لم تنكسر كما ينبغي منذ أكثر من مئة ليلة. لم يبقَ في هذا الشارع شيء من الحماس المعتاد، بل إن الحزن وحده هو الذي يملأ المكان. القائد ليس هنا. والحسينية ليست كما كانت؛ لكن مجلس عزائه ما زال قائماً. عندما جاءت جائحة كورونا وتعذر حضور الضيوف إلى الحسينية، أقام هو العزاء وحيداً. وعندما اندلعت الحرب واشتدّ التهديد وتعذّر حضوره، بقي العزاء قائماً.

واليوم، حتى بعد استشهاده، لم يزيلوا راية عزاء جدّه الإمام الحسين(ع). وبقي سراج العزاء، كما جرت العادة طوال عقود، مضيئاً. فهذا هو باب فيض الحسين(ع)، ومازال مفتوحاً.

قمر ساقط على التراب!

حين نصل إلى المداخل الخلفية لبيت قائد الثورة الشهيد، تبدو مراسم الدخول كما كانت في السابق. الطوابير مصطفة؛ لكن هؤلاء الناس، خلال الأشهر الماضية، كأنهم جميعاً أصبحوا قرّاء مآتم. يرفع شاب صوته قائلاً: «إخوتي! القائد لم يعد بيننا» فتجري الدموع بين الصفوف، وتبتلّ الوجوه، ويطلب أحدهم الصلاة على روح قائد الثورة الشهيد. يا لها من عبارات غريبة! تحت هذا السقف الشامخ كنّا دائماً نصلي من أجل سلامته.

هذه الأبنية... هذه الجدران... لماذا تحطّمت النوافذ؟ ولماذا غطّى الغبار كل شيء؟ لقد اعتدنا أن نحضر مجالس عزائكم؛ لكن المصيبة لم تكن تبدأ يوماً من ساحة الحسينية نفسها. أمّا اليوم، فقد صار كل حجر في هذا المكان مأتماً قائماً بذاته، يحتاج إلى سنوات من البكاء. كأن أحداً قد سقط هنا إلى وأُودع التراب.

أدخل، وقد أُقيمت الصلاة والجميع في الركوع؛ لكن أين ذلك الصوت الممدود وهو يردد: «سبحان ربّي العظيم وبحمده» بذلك التأكيد المميز على لفظ «العظيم»؟ ولماذا فُرشت هذه السجادات الصفراء تحت أقدام الضيوف؟ وأين الحصر الزرقاء التي اعتدنا رؤيتها؟ هل جئت إلى العنوان الصحيح؟ أهذا حقّاً بيت القائد؟

أجلس في زاوية. لم يعد أحد يحاول الاقتراب من المنصة ليراك، ولم يعد أحد يكترث إن كان مكانه خلف عمود. فالقمر لن يطلع هذه الليلة، ولا جدوى من مدّ الأعناق انتظاراً لرؤيته. الليلة، هذا المكان مظلم... بلا قمر.

من دونك... لا هواء أتنفّسه!

يتقدّم قارئ القرآن إلى الميكروفون ويبدأ التلاوة: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ... رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ**﴾. نعم، لقد كنت راضياً عن الله دائماً، فرضي الله عنك، وهكذا اصطفاك إليه. يبلغ القارئ ذروة تلاوته، وينهي القراءة بقوله: «صدق الله العليّ العظيم»؛ لكن لا أحد هنا يودعه بابتسامته الأبوية المعهودة قائلاً: «طيّب الله أنفاسك». ينهض وحده ويرحل. الليلة، كل تفصيل في هذا المجلس يبعث على الأسى. رحم الله قلوبنا.

ذلك الكرسي الأسود البسيط، الذي كان موضع جلوس سماحته في كل مجلس، يقف إلى جانب الجدار صارخاً بغياب صاحبه. وعلى الكرسي صورة للقائد وهو يلوّح للضيوف

ذلك الكرسي الأسود البسيط، الذي كان موضع جلوس سماحته في كل مجلس، يقف إلى جانب الجدار صارخاً بغياب صاحبه. وعلى الكرسي صورة للقائد وهو يلوّح للضيوف. صورة لا أستطيع حتى الآن أن أحدق في عينيها. الغصّة تحوّلت إلى حجر رطب عالق في الحناجر، والدموع متجمعة في العيون، تبحث عن ذريعة لتنهمر.

يقال إن الراوي الحقيقي هو الذي يلتقط التفاصيل التي يراها. أمّا الليلة، فالقانون مختلف تماماً. الليلة، ينبغي أن تكتب الأشياء التي لم تعد تراها. في رأسي أسمع الناس يهتفون كما اعتادوا: «يابن فاطمة! نحن بانتظارك». وأرى رجالاً يحملون أوراقاً كتبوا عليها: «سيدي! الكوفية». وأرى خدّام المراسم في بيت القائد يذهبون ويجيئون، وأرى الستارة المخملية الزرقاء تتحرك باستمرار، وأسمع الحاضرين يتدرّبون على القصيدة التي كانوا ينشدونها مع الرادود عند حضور سماحته. ثم أعود إلى الواقع... فلا هتاف، ولا أوراق، ولا ستارة... ولا قائد. السيد ميرهاشم الحسيني هو خطيب المجلس هذه الليلة. يتحدث عن فلسفة الحياة، وعن الفرق بين رؤية جبهة الإسلام وجبهة الكفر للحرب والموت. يقول إنهم يعدّون كلّ مَن يُقتل مهزوماً، أمّا نحن فنرى شهداءنا خالدين في التاريخ، وكلما عظم الشهيد ازداد خلوده... مثل القائد. الرجل الجالس إلى جواري هو شقيق أحد الشهداء الإثنين والأربعين الذين ارتقوا في إحدى القواعد الصاروخية بسبب نقص الأوكسجين. كان ينتظر أن تلتقي نظراتنا ليفتح باب الحديث، فأعطيته الفرصة. قال: «غياب القائد عن مجلس الليلة جعل الهواء قليلاً بالنسبة لي أيضاً... لا أستطيع أن أتنفّس. الآن فقط فهمت ما الذي عاناه أخي هناك».

ليقل لي أحد إنّ هذا غير حقيقي!

الجمع كلّه، آلاف الحناجر المختنقة بالبكاء، يجلسون تحت سقف زينبية بيت القائد. الجميع ينتظر قراءة المراثي، ينتظر أن يطلق أحدهم زفرة واحدة حتى تنفجر الدموع من غير حاجة إلى قراءة المصيبة. أغرق في الخيال... فإذا بالباب الأيمن للزينبية يُفتح، ويدخل القائد بقامته المهيبة، مرتدياً عباءته الكحلية التي اعتاد ارتداءها في أيامه الأخيرة. ينهض الجميع دفعة واحدة: «حيدر... حيدر». يلوّح بيده، يبتسم، ثم يجلس على كرسيه. لا يستطيع أحد أن يبقى جالساً من شدّة الفرح والذهول. الجميع يبكي، وكأن المجلس قد تحول إلى يوم القيامة. ليقل لي أحد إن هذا غير حقيقي... ليقل لي أحد إنه مجرد حلم. أستفيق... فأجد الكرسي فارغاً.

ينشد الحاج مهدي رسولي: «ليقل لي أحد إنه مجرد حلم». فتتحطم الآهات، وترتفع الصرخات. الشيخ الجالس أمامي يضرب رأسه بكلتا يديه بقوة. لم يشهد هذا المكان بكاءً كهذا من قبل. وعلى يساري يجلس ابن شهيد يبدو في العاشرة من عمره، وقد أخذ ينتحب بشدة، بينما فتح عمّه أزرار قميصه ليدخل إليه الهواء، وكاد الصغير أن يفقد وعيه. وفي قسم النساء تعلو الضجة، فالنساء كنّ دائماً أصدق الناس في أداء حق المصيبة. ويواصل مهدي رسولي إنشاده: «لعلّ الباب يُفتح... ويأتي». فتتعلق العيون كلها بالباب، في غاية العجز والرجاء. هنا، كان الرادود والمستمعون دائماً يراعون حال القائد؛ فلا يبالغ الرادود في إثارة اللوعة، ولا يرفع الناس أصواتهم احتراماً له. أمّا الليلة، فكأن أحداً لم يعد يراعي شيئاً. الليلة، القائد ليس هنا. تحولت الآهات إلى دموع، والدموع إلى صرخات. كان الحاج مهدي رسولي ينشد، وكنّا نحن نتحول إلى بكاء. اعتدت في مجالس بيت القائد أن أرفع رأسي من بين دموعي، فأرى القائد وقد وضع يده على وجهه، وتدلّت سبحته بين أصابعه، فيما تهتزّ كتفاه بهدوء من شدّة البكاء. أيّتها الدموع اللعينة... تنحّي قليلاً، أريد أن أرى القائد. شخص واحد فقط غاب؛ لكن بيت القائد كلّه امتلأ بفراغ غيابه حتى صار الفراغ نفسه يدوّي، وكأن العالم بأسره قد خلا. ولا يزال ذلك البيت الشعري يتردد في داخلي:
كم مرّةً قتلت نفسي الليلة في دربك...
ولم تخرج لتُطلّ علينا... فما جدوى الانتظار؟

صوت الإمام علي(ع) في الكوفة

٦ علي متقيان
مدير عام مؤسسة ايران الثقافية والاعلامية

في اليوم الحادي عشر من شهر محرّم الحرام، وبعد أن أنهى عبيدالله بن زياد المرحلة الأولى من العنف وقتل الإمام الحسين(ع) وأصحابه، بدأ المرحلة الثانية من جريمته، فأمر جنوده بدفن قتلاهم وترك الأبدان الطاهرة للشهداء وإمام الشهداء على وجه الأرض. ويبدو أن هؤلاء المضيفين قد عقدوا العزم على ألّا يدّخروا أيّ جريمة. وفي هذه المرحلة، وقد سكروا بنشوة النصر الظاهري، شرعوا -على حدّ تعبيرهم- في تطبيق قانون الأسرى على عائلة الرسالة.

استقبال أهل الكوفة للناجين والشهود

كان من المقرر أن يتوجّه الناجون والشهود على الواقعة إلى الكوفة، وأن يلقّوا استقبالاً من أهل المدينة. وكانت الكوفة أيضاً مهيّأة للاستقبال؛ ولكن أيّ استقبال؟! وأيّ أهل مدينة؟!

بالأمس كتبوا الرسائل، ودعوا إمام زمانهم كي يستقبلوه بكل فخر، ويسهموا إلى جانب إمامهم في إحياء دين النبي(ص)؛ ولكن ماذا حدث؟

بإشارة وتهديد!! قدّموا الدنيا على الآخرة!! وبدلاً من اتّباع الإمام(ع) وابن النبيّ (ص)، انضمّوا إلى جيش عبيدالله بن زياد.

وبدلاً من استقبال الضيف الذي دعوه، خرجوا إليه بجيش جرّار!

وبدلاً من تهيئة أسباب الإقامة والراحة للضيوف، حاصروا ضيفهم في منطقة قاحلة بلا ماء. وبدلاً من الضيافة، منعوا حتى الماء عن ضيفهم ليكتمل جرمهم.

وهكذا اكتسبت الضيافة في ثقافة الكوفيين معنى آخر، وظهرت في يومي الحادي عشر والثاني عشر من محرّم الحرام في صورة تنمّ عن غاية انعدام المروءة.

استقبال المدعوين في الكوفة

أولئك الكوفيون الذين كان يفترض أن يتوجّهوا لاستقبال الإمام وابن نبيّهم وفاءً لرسائلهم...

أولئك الكوفيون الذين جاؤوا بالإمام(ع) إلى هذه المنطقة بدعوتهم، ثم استقبلوه بتلك الضيافة التي خلّدتها الجريمة، هم أنفسهم الذين أقاموا اليوم احتفال استقبال وانشغلوا بالفرح.

غير أن الاستقبال كان هذه المرة لرؤوس الضيوف المدعوين المقطوعة، ولأسرة الضيف التي وقعت في الأسر، وأُجري عليها حكم الأسير الخارج من الدين؛ فقُيّدوا بالأغلال والسلاسل، وأُركبوا على ظهور الإبل بغير وطاء. إنها نساء وأطفال أُسرى فقدوا، في حرب غير متكافئة وبفضل ضيافة الكوفيين، الإخوة والآباء والأبناء والأنصار.

لقد جاءت هذه الأسرة إلى الكوفة بناءً على دعوة، كما أن الكوفيين خرجوا -بإرادتهم- لاستقبالهم!! لكن الفارق أن عاراً لحق بالكوفيين جراء هذه الضيافة، عاراً لن يُمحى أبداً من ذاكرة العالم.

قافلة الأسرى في الكوفة

بعد أن مُرِّرَت قافلة الأسرى بجوار الشهداء، وشاهدت الأبدان الطاهرة الممزّقة لكبارهم، غادرت كربلاء بعد ظهر اليوم الحادي عشر من محرّم، ودخلت الكوفة في اليوم الثاني عشر من محرّم. وكان أهل الكوفة قد انخرطوا في أجواء الفرح والضجيج احتفالاً بما سُمّي نصراً. وكان الحاكم، السكران بهذا النصر، يظن أنه ظفر بالميدان؛ فكتب إلى يزيد يعلن له الغلبة على الحسين بن علي(ع)، ويطلب منه التكليف.

وفي خضمّ هذه الحالة الزائفة من الفرح والهيجان، دوّى فجأة صوت عالٍ! صوت يشبه صوت علي(ع)!

وكأنّ الإمام علياً(ع)، الذي أمضى سنوات خلافته في هذه المدينة وكان أهلها يعرفونه ويعرفون أبناءه جيداً، كان يصرخ على هؤلاء القوم الغادرين بلسان السيدة زينب(س).

خطبة السيدة زينب(س) في الكوفة

ألقت السيدة زينب(س) خطبة في الكوفة، فاغرورقت عيون أهلها بالدموع، وارتفعت أصواتهم بالبكاء. وكانت تلك الأجواء أول شرارة أُلقيت في نار نصرة الإمام(ع) في الكوفة، فأحدثت تحولاً في أهلها. لقد أفاق هؤلاء الناس على صوت علي(ع) وهو يهتف: «اسكتوا».

وبأمر من السيدة زينب(س)، وبصوتها العلوي، خيّم على المدينة صمتٌ حتى إن صوت أجراس الإبل لم يعد يُسمع. بعد أن سكت الناس، ارتفع صوت زينب المشابه لصوت علي، وبعد حمد الله الواحد والصلاة على جدّها رسول الله (ص)، خاطبت أهل الكوفة. فبكى أهل الكوفة عند سماع صوت زينب(س). وقد وصفت السيدة زينب(س) هؤلاء الناس بأنهم قوم ماكرون غادرون، وقالت مخاطبة أهل الكوفة: **«أَلَا سَاءَ مَا قَدَّمَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ وَسَاءَ مَا تَزِرُونَ لِيَوْمِ بَعْثِكُمْ فَتَعْساً تَعْساً وَنَكْساً نَكْساً لَقَدْ خَابَ السَّعْيُ وَتَبَّتِ الْأَيْدِي وَخَسِرَتِ الصَّفْقَةُ وَبُؤْتُمْ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْكُمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ»**.

خطبتا الإمام السجاد(ع) والسيدة زينب(س)

بعد السيدة زينب(س)، قال الإمام السجاد(ع) في خطبة له: **«أَيُّهَا النَّاسُ! نَاشَدْتُكُمْ بِاللهِ! هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّكُمْ كَتَبْتُمْ إِلَى أَبِي وَخَدَعْتُمُوهُ؟ وَأَعْطَيْتُمُوهُ مِنْ أَنْفُسِكُمُ الْعَهْدَ وَالْمِيثَاقَ وَالْبَيْعَةَ، وَقَاتَلْتُمُوهُ وَخَذَلْتُمُوهُ؟ فَتَبّاً لِمَا قَدَّمْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ، وَسَوْأَةً لِرَأْيِكُمْ. بِأَيَّةِ عَيْنٍ تَنْظُرُونَ إِلَى رَسُولِ اللهِ إِذْ يَقُولُ لَكُمْ: قَتَلْتُمْ عِتْرَتِي، وَانْتَهَكْتُمْ حُرْمَتِي، فَلَسْتُمْ مِنْ أُمَّتِي؟!»**.

لقد أعادت خطبتا الإمام السجاد(ع) والسيدة زينب(س) أهل الكوفة ناقضي العهد إلى وعيهم مرة أخرى، ودفعتهم إلى التفكير؛ ولكن ما الفائدة؟!

ويمكن تصور أن حركة التوّابين بدأت مع سماع هذه الخطب. فقد ندم بعضهم بعد الاستماع إلى هذه الكلمات، وبدأوا حركة في الكوفة سُجّلت في التاريخ باسم التوّابين. وقد انطلقت هذه الجماعة التوّابة بقيادة سليمان بن صرد الخزاعي، وتحت شعار «يا لثارات الحسين(ع)»، في مواجهة الخلافة الأموية، وهي الحركة التي أفضت لاحقاً إلى قيام المختار الثقفي.

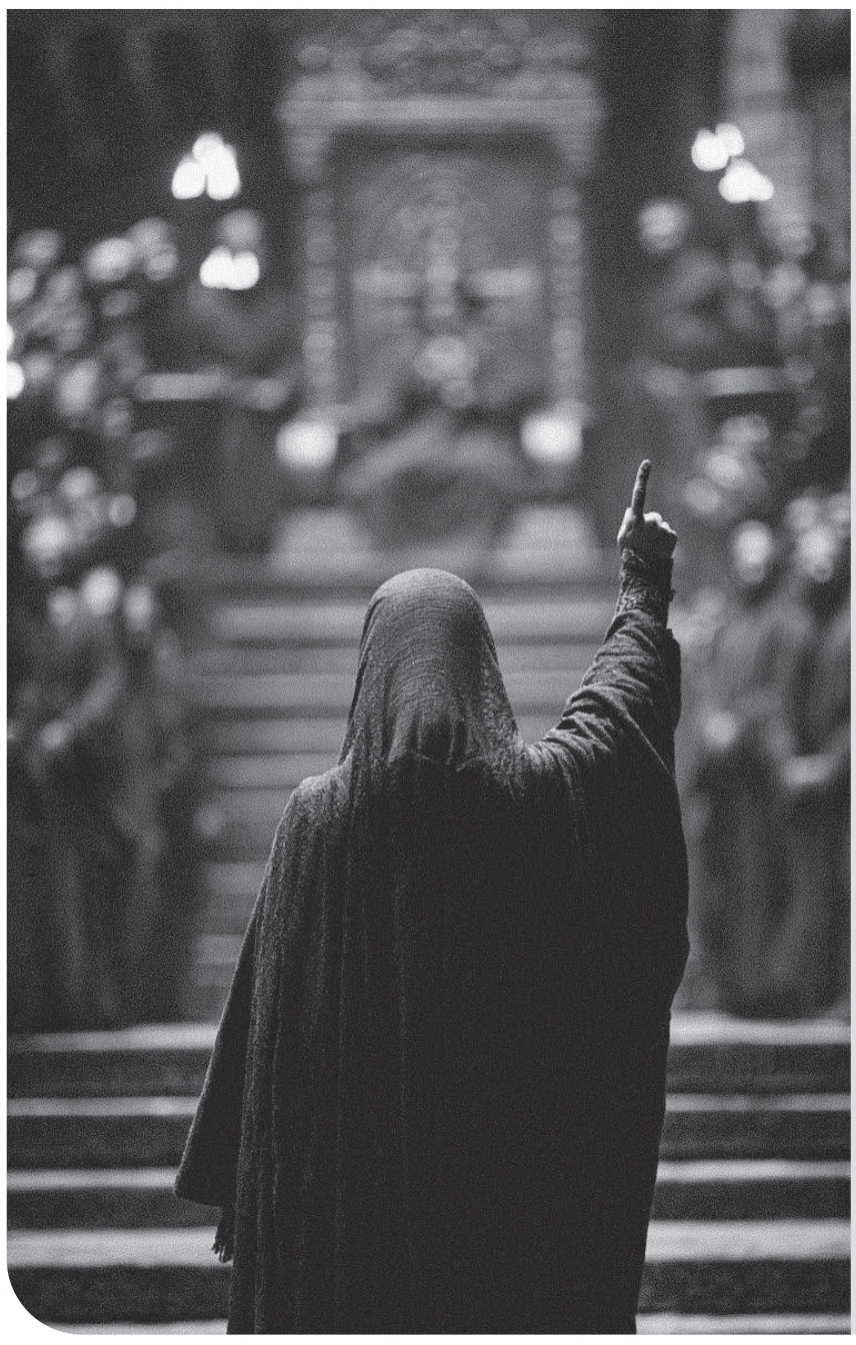

لقد أعادت خطبتا الإمام السجاد(ع) والسيدة زينب(س) أهل الكوفة ناقضي العهد إلى وعيهم مرة أخرى، ودفعتهم إلى التفكير؛ ولكن ما الفائدة؟!